تأريخ الحرب الأهلية اللبنانية من منظور جندري

نور حطيط

هذه المقالة وُلدت من ذاكرة. ذاكرة طفلة لمَسَت التفجّع الذي أحاطَ بفخْذة أبيها. طلقة نارية أصابته في الحرب الأهلية اللبنانية وحريق في وجهه تسبب باختفاء بعض ملامحه التي تراجعت إلى الخلف، مع انفجار خزّان الوقود في وجهه حينَ كان جنديًّا باللواء السادس في الجيش اللبناني.

بسرعةٍ، فرضت الكتابة نفسها عليّ، لأتكلم عن المسافة السياسية بيني وبين أبي. لم أتوقّع صعوبة ما قادَني إليه بحثي في تاريخ الحرب الأهلية اللبنانية. فبينما كان أبي يستخدم في كلّ مرة تاريخه لإضفاء نوع من الشرعية على وُجهات نظر معيّنة، كنتُ أقرأ بلا حنين وبتواطؤ مع شغَفي باكتشاف ما هو أبعد من الصندوق الطائفي الذي انتميتُ إليه.

توقّفَ التاريخُ في مدرستي عند الفترة العثمانية، توقّف الزمن في جميع المدارس اللبنانية هناك، لم يكن للحرب الأهلية اللبنانية وجه، مكان أو أثر. لستُ من مناصري التاريخ الموحَّد للحرب الأهلية. وُلدتُ بعدَها، ثمَّ علمتُ أنَّ الذاكرة هي المحرّك الأساسي للحاضر في هذه البقعة، وأنَّ البُعد الأسطوري للماضي لدى كلّ طائفة وجماعة تقوم على تعبئة الذاكرة واستعمالها لتعزيز هذا التقوقع الذي ما زلنا نعيشه!

حينَ كنتُ أسمع مغامرات أبي في هذه الحرب، كنتُ أعتقدُ أنها حرب تخصّ الرجال فقط. نادرًا ما جرى التطرُّق إلى النساء إلّا في بعض كُتب السِّير الذاتية التي قرأتها لاحقًا، أو في المرويات الشفوية، والشهادات التي انتشرت بعد أعوام بعيدة. كنَّ دائمًا في الخلفية، في الظلّ، كما لو أنَّ نسيان رواياتهنَّ، كان جزءًا من مشروع الذاكرة التاريخية لكلّ الأطراف المشاركة.

وكانَ سؤال: كيفَ يُعطي الجندر معنًى لتنظيم المعرفة التاريخية؟ مدخلًا أساسيًا لأبني تصُّورًا مختلفًا عن الحرب الأهلية اللبنانية وعن الفئات التي همّشَتها السَّرديات الكبرى وأزاحتها عن الوسط.

القراءة تعني إعادة القراءة

لستُ بصدد التطرُّق إلى الإشكالات التي أحاطت الجندر في تنظيم المعرفة التاريخية، فما يهمُّني فقط هو ما صاحَب «التأريخ النَّسوي» من أسئلة أثارت لديّ الفضول للبحث والقراءة في تاريخ الحرب الأهلية اللبنانية: لماذا من الضروري رؤية التاريخ من خلال عيون النساء؟ هل شاركت النساء في الحرب الأهلية اللبنانية؟ ما طبيعة مشاركتهن...؟

أخذَت الحرب الأهلية اللبنانية التي دامت ١٥ عامًا، شكل الحرب الطائفية، كُتبت سردياتها وأحداثها من منظور القوى المسيطِرة وبناءً على تجاربها. لم يتمّ التطرُّق إلى النساء وأدوارهنّ المتنوّعة، وإن جرى ذلك، فغالبًا ما كان من باب التنميط واعتبار أعمالهنّ الرعائية أحداثًا خاصة

على سبيل المثال. بعض الشهادات التي سأعرضها تبيِّن عكس ذلك. لتكون أصواتهنَّ أبعدَ من «تفاصيل شخصية».

تعرض الدكتورة روزماري صايغ في ورقتها «المرأة في الحرب الأهلية اللبنانية - قوة البنادق» الصادرة عن «مركز الدراسات العربية والشرق أوسطية» قصة امرأة مسلمة سنِّية انضمت للمشاركة مع ابنتها البالغة من العمر ١٨ عامًا في أعمال الإغاثة ضمن الصليب الأحمر في الحرب. تحكي الأُم عن تجاربها القاسية على الحواجز، خاصة عند نقطة التفتيش المسيحية عندما كانت تُسأل دومًا عن هويتها، فتقول إنَّ اسم عائلتها أنقذَها مرارًا من القتل، هي وأطفالها، كَون والد زوجها يُعدُّ من الشخصيات المؤسِّسة للبنان.

تروي ابنتها أنّ والدتها كانت نشِطة بشكل لافت، إذ كانت تستضيف العائلات اللاجئة والنازحة، توفِّر لهم الطعام والمأوى، وتواصل في الوقت عينه رعاية أطفالها، وتقديم الإسعافات للمصابين.

وتسرد الابنة أنه في إحدى المرات، حين خرجتْ لشراء القهوة من المتجر المجاوِر، حصل انفجار، وبمحض الصدفة كانت تقف خلف عمود، فلم تُصَبْ. وعندما بدأ الدخان ينقشع قليلًا، شاهدت جثثًا على الأرض وجرحى ينزفون. تلفتّت حولها، ورأت مجموعة من النساء المحجَّبات، فأخذت حجاباتهن وبدأت بمعالجة الجرحى وتخفيف عوارض النزيف، محاولة إنقاذ من استطاعت.

يقوم فهمنا لقضايا النساء في الحروب من منطلق نقل الجندر من المجال الخاص إلى العام، على كسر

الثنائية التي تفصل بين هذين المجالين، عندئذٍ، تذهب قضاياهنَّ المتعلقة بحياتهنَّ وأجسادهنّ وعلاقاتهنّ في الحرب للانتقال إلى صلب التاريخ، فتصير قضايا سياسية واجتماعية عامّة حتى تلك المرتبطة بالأعمال الرعائية.

التأريخ النَّسوي يتأسّس جوهريًّا على هذا الانتقال. إذ يحاول إضافة تجارب النساء في كتابة التاريخ، ليست كتجاربَ هامشية، بل كأحداثٍ جوهرية نعي عبرها التأثيرات التي تركتها النساء أثناء انخراطهنّ المُتنوِّع في الحرب الأهلية اللبنانية، خصوصًا مع تغييبهنَّ من السَّرديات الرسمية.

تستعرض الكاتبة اللبنانية رجينا صنيفر في كتابها Je dépose les armes - Une femme dans la guerre du Liban، وهو شهادة شخصية، تجربتها كامرأة عاشت الحرب الأهلية اللبنانية، وانخراطها كمقاتلة ضمن إحدى الميليشيات المسيحية قبل أن تستقيل أخيرًا وتسافر وتنأى بنفسها عن المشاركة في الحرب.

في مثال آخر، ورد في كتاب الدكتورة صايغ

الـذي أشـرتُ إليـه أعـلاه، تشـارك ميشـيل، الفتـاة ذات الثلاثـة عشـر عامًـا، شـهادتها فـي الحـرب. فهـي كانـت تقطـن الأشـرفية ووالدهـا ينتمـي إلـى حـزب الكتائـب بقيـادة بيـار الجميـل الجـدّ. وكان يوجـد أمـام منزلهـا نقطـة تفتيـش، وعندمـا أعلموهـا بحاجتهـم إلـى نسـاء للتحـدُّث عبـر الأجهـزة اللاسـلكية، انخرطـت فـي العمـل فـي مركـز الكتائـب. بعـد ذلـك تلقَّـت أولـى تدريباتهـا فـي منطقـة الـدورة وحملـت السـلاح.

فـي المقلـب الآخـر، تحديـدًا فـي بيـروت الغربيـة، تسـرد دلال البـزري فـي كتابهـا «الحـرب الأهليـة اللبنانيـة»، انخراطهـا فـي الحـزب الشـيوعي اللبنانـي وتعاونهـا مـع الفصائـل الفلسـطينية، ومشـاركتها فـي الجبهـات وفـي الحـرب بشـكلٍ مباشـر. تقـول فـي هـذا السـياق: «مهمّتنـا لا تقتصـر علـى «الداخـل»، أي فـي المدرسـة - المركـز. فبعـد تأميـن الغـذاء، فـي طناجـر ضخمـة، بكميـات تلبّـي شـهيَّة ٥٠ رفيقًـا ورفيقـةً، بعـد أن نكـون قـد أفرغنـا مهارتنـا كلهـا فـي تعديـل النـار، ورشّ الملـح... لـم نكـن نرتـاح، بـل كنّـا نتابـع نهارنـا، وننفِّـذ المهمّـات الخارجيـة.

نسـاء انخرطـنَ أيضًـا فـي عمليـة البنـاء، كإيمـان خليفـة، المعلمـة التـي تحوَّلـت إلـى ناشـطة سـلام، بعـد دعواتهـا للاحتجـاج والاعتصـام علـى الجرائـم التـي ارتكبتهـا الميليشـيات فـي الحـرب الأهليـة اللبنانيـة. وعلـى الرغـم مـن أنَّ مسـيرتها لـم تحقّـق نجاحًـا بسـبب سـيطرة الميليشـيات علـى الحيِّـز العـام، إلّا أنهـا تركـت أثـرًا كبيـرًا، إذ حرّكـت اعتصامـات خارجيـة فـي لنـدن وباريـس ونيويـورك للمطالبـة بوقـف إطـلاق النـار.

مـا أهميـة التوثيـق الشـفوي ومـا علاقتـه بالتأريـخ النسـوي؟

بعـد أكثـر مـن ٢٠ عامًـا علـى انتهـاء الحـرب الأهليـة اللبنانيـة، أصـدرت «الحركـة القانونيـة العالميـة» LAW، لأول مـرةٍ فـي ٩ حزيـران (يونيـو) تقريـرًا، بنـاءً علـى شـهادات نسـائية بعـد أن أجـرت معهـنّ مقابـلات. وعنـد سـؤالهنّ عـن سـبب عـدم توثيـق قصصهـنّ مـن قبـل، كان جوابهـن: «إنهـا المـرة الأولـى التـي تُسـألنَ فيهـا ويتـم إجـراء مقابـلات معهـنَّ».

حمـل التقريـر عنـوان: «اغتصبونـا بجميـع الطـرق الممكنـة، بطـرق لا يمكـن تصورهـا: جرائـم النـوع الاجتماعـي خـلال الحـرب الأهليـة اللبنانيـة». مـا أثـار ضجـة واسـعة بعـد الكشـف عـن الاغتصـاب الممنهـج التـي قامـت بـه بعـض الميليشـيات بحقهـنَّ فـي الحـرب.

أعادنـي هـذا التقريـر للتفكيـر فـي أهميـة التوثيـق الشـفَوي مـن منظـورٍ نسَـوي. إذْ يُعتبـر التوثيـق جـزءٌ لا يمكـن الاسـتغناء عنـهُ فـي منهجيـة التأريـخ النسَـوي، وهـو مسـار أساسـي فـي إعـادة كتابـة تاريـخ الحـرب الأهليـة مـن منظـور يكشـف عـن التجربـة النسـائية المتنوِّعـة. ويعتـرف التقريـر بـأنَّ الذاكـرة النسـائية، الشـخصية كانـت أم الجَمعيـة، تكشـف علاقـات السـيطرة والقـوة فـي سـردية الحـرب الأهليـة اللبنانيـة، وتمنـح فرصـة للحديـث عـن العدالـة الانتقاليـة.

كيـف تؤثِّـر القـراءة الجندريـة للحـرب الأهليـة اللبنانيـة علـى مسـتقبلنا؟

عندمـا أعـدْتُ قـراءة تاريـخ الحـرب الأهليـة اللبنانيـة مـن منظـور جنـدري، فهمـت كيـف أنَّ الميليشـيات التـي شـاركت والقـوى التـي كتبـت التاريـخ ونقلـت الأحـداث، أعـادت إنتـاج الإقصـاء والتمييـز فـي المجتمـع الـذي عشـتُ فيـه أغلـب أيـام حياتـي حتّـى انفجـار مرفـأ بيـروت عـام ٢٠٢٠.

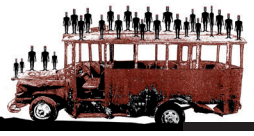

تكمن أهمية التأريخ النَّسوي، بالنسبة لي كامرأة تجرّأتْ على الخروج من عباءة الطائفة التي نشأت فيها، في فهم جذور اللامساواة، وتحليل البُعدين العام والخاص معًا دون تغييب لأدوار النساء أو تهميشها، ما منحني ذلك أدوات لإنتاج خطاب جديد، ما بعد طائفي، أسعى من خلاله إلى المطالبة بالعدالة لكلّ من تمّ تهميشه أو إقصاؤه أو ارتُكبت الجرائم في حقه، بغضِّ النظر عن انتمائه.

حين كتابة هذه المقالة، تذكّرتُ ما قالهُ ذات مرة الكاتب الفرنسي جان جينيه: «الكتابة هي الملاذ الأخير لمَن خان». وأنا كتبت لأنني خُنت السَّردية الأولى - سردية طائفتي ومحيطي - لصالح ما تبقّى لي من هذا الوطن.